الكناية عند ابن سنان الخفاجي (قراءة في ضوء المنهج التداولي)

Metonymy in Ibn Sinan Al-Khafadji writings (Reading in the Light of pragmatism).

طالبة دكتوراه/ زينب بن قيراط
الدكتور: عبد السلام شقروش

قسم اللّغة العربية وآدابها- جامعة باجي مختار- عنابة(الجزائر)
benkiratzeyneb@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/10/02 تاريخ القبول: 2021/05/11 تاريخ النشر: 2021/09/15

- **ملخص:**

يتناول هذا المقال الكناية عند ابن سنان الخفاجي ضمن رؤية تداولية أظهرتها مباحث مؤلفه "سر الفصاحة" على نحو لا يمكن تجاوزه، فكان علينا أن نبرز مواطنها لما لمحناه من عناية بالمقام والمتكلم والمتلقي، في محاولة تقديم قراءة تجمع بين الطرح البلاغي لابن سنان ومدى توافقه مع مبادئ التداولية بما يُثري الدرس البلاغي العربي.

وقد خلص البحث إلى أن الكناية عند الخفاجي لم تكن مجرد معالجة لفظية استبدالية لأغراض جمالية، بل مثلت تقنية دلالية تعمل على إيضاح المعنى بمستلزماته.

الكلمات المفتاحية: الكناية؛ التداولية؛ الفصاحة؛ البلاغة؛ ابن سنان الخفاجي.

Abstract:

This article deals with metonymy in Ibn Sinan Al-Khafadji within the framework of a pragmatic vision revealed by the sections of his book entitled **"the secret of eloquence"** in a way that cannot be exceeded, we had to highlight their places given the care we gave to the context, the speaker and the receiver, in an attempt to present a reading combining the rhetorical approach of Ibn Sinan AL- Khafadji and the degree of its conformity with pragmatic principles by what can enrich the course of Arabic rhetoric. Our research concluded that metonymy in AL- Khafadji writings was not a simple substitute verbal processing for aesthetic reasons but rather a pragmatic technique aiming at clarifying meaning with its requirements.

key words: metonymy; pragmatism; eloquence; rhetoric; Ibn Sinan Al-Khafadji.

مقدمة:

شغلت الكناية حيّزا كبيرا في الدراسات البلاغية العربية القديمة وأثارت اهتمام الباحثين على اختلاف مرجعياتهم المعرفية والمنهجية واتجاهاتهم من لغويين ونقاد وبلاغيين، فهي من الأساليب التي تنتقل بالمتلقي من الدلالة الحقيقية إلى دلالات أخرى، وهي أيضا من الصور البلاغية التي أكّد فيها القدماء بوعي عميق وسعة اطّلاع على أهمية المقام في الوقوف على مدلولاتها الاستلزامية، وقد تجلى ذلك أيضا في عنايتهم بالمتكلم والمتلقي وهي كلها مصطلحات ومفاهيم لا تختلف عمّا نجده في اللّسانيات الحديثة (التداولية). ومن هذا المنطلق العام وجدت الكناية أرضية خصبة عند ابن سنان الخفاجي في مؤلفه: **"سر الفصاحة"** إذ لم تكن مجرد زخرف لفظي يُؤتى بها لتزيين الكلام بل حاول ربط نظرته البلاغية للكناية بالدرس اللّغوي في كونها مظهر تداولي يستدعي تفاعل كل من المتكلم والمتلقي والمقام للوصول إلى المعنى، ومن هنا تبلورت فكرة المقال للإجابة عن التساؤل الآتي: ما هو الدور الذي يضطلع به البعد التداولي في إثراء الدرس البلاغي العربي ؟

إذا كان هدف المتكلم استعمال الأسلوب الكنائي لإثبات معنى معيّن من غير ذكره باللفظ الموضوع له في الأصل، فإنّ ابن سنان الخفاجي جعل فصاحته مشروطة بمقام إنتاجه.

فما الكناية عنده؟ وماهي أنواعها؟ وكيف تم تفسيره لها؟

تلكم هي الأسئلة التي أعمل في هذا المقال على الإجابة عنها.

الكناية: عالج ابن سنان الخفاجي الكناية في بابين منفصلين هما:

1- باب حسن وضع الألفاظ موضعها (من شروط الفصاحة والبلاغة).

2- باب من نعوت البلاغة والفصاحة(الإرداف والتتبيع).

فعرّفها في باب حسن وضع الألفاظ موضعها بقوله: **"ومن هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسُن فيه التصريح، وذلك أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة، وإنّما قلنا في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح،**

لأنّ مواضع الهزل والمجون وإيراد النوادر يليق بها ذلك، ولا تكون الكناية فيها مرضية؛ فإنّ لكل مقام مقال، ولكل غرض فنا وأسلوبا"[1].

فهذا يعني أنّ: للكناية بنية سطحية وأخرى عميقة وتحدث نتيجة عدول المتكلم عن التصريح إلى التلميح؛ أي حين يريد إضمار معنى من المعاني بغية تحقيق غرض معيّن بشرط أن تكون الكناية في موضع لا يحسن فيه التصريح بالخروج من الدلالة الحرفية إلى الدلالة الإيحائية، هدفها إثارة المتلقي وحثّه على تحريك قدرته الذهنية للوصول إلى المعنى المضمر مع ضرورة مراعاة مقام التركيب الكنائي.

ومن شواهده الشعرية الفصيحة[2] على ذلك:

قول **امرئ القيس**[3]:

فَصِرْنَا إِلَى الحُسْنَى وَرَقَّ كَلاَمُنَا وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيَّ إِذْلاَلِ

علّق ابن سنان الخفاجي على البيت بقوله: **"لأنّه كنّى عن المباضعة بأحسن ما يكون من العبارة"**[4].

ومن هذا الفن أيضا من حسن الكناية قول **أبي الطيّب**[5]:

تدَّعِي مَا ادَّعَيْتَ مِنْ أَلَمِ الشَّوْ قِ إِلَيْهَا والشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ

وكذلك علّق بقوله: **" لأنّه كنّى عن كذبها فيما ادّعته من شوقها بأحسن كناية "**[6].

يبدو أنّه حصر فصاحة الكناية وبلاغتها في المواضع التي يُقبح ذكر اللفظ فيها صراحة واستعمالها خارج هذا الموضع الذي حدّده يجعلها مستكرهة ومستهجنة، لأنّها لا تصبح كناية بل يُحتاج لأن يكنى عنها.

ومن شواهده الشعرية غير الفصيحة بيت **للمتنبي**[7]:

إِنِّي عَلَى شَغَفِي بِمَا فِي خُمْرِهَا لَأَعَفُّ عَمَّا فِي سَرَاوِيلاَتِهَا[8]

علّق الخفاجي على هذا البيت بقوله: **"فالمتأمل لهذا البيت يجده يجري من بيت امرئ القيس مجرى الضدّ، وذلك أنّ امرأ القيس عبّر عمّا يجب أن يكني عنه من المباضعة فكنى بأحسن كناية، وهذا عبّر عمّا لا يجب أن يُكنى عنه، فأتى بألفاظ يجب أن يُكنى عنها"**[9].

يردّ على تعليقه أحد الباحثين قائلا: **ونحن نتفق مع الخفاجي في حكمه على بيت المتنبي بأنّه من قبيح الكناية، ولكنّنا لا نتفق معه في قوله بأنّه عبّر عما لا يجب أن يُكنّى عنه، إذ أنّنا لو سلمنا بذلك نكون قد حصرنا أسلوب الكناية في ستر الأساليب التي يُستقبح ذكرها فقط وأسلوب الكناية أكبر من ذلك وأرحب فهو لون من ألوان الأساليب يخرج به الشاعر إلى معان في اللّغة يتجوز فيها الأساليب التي تخدمه في غرضه مع مراعاة العلائق والروابط بين المعنى المقصود والمعنى المذكور فالذي نأخذه على المتنبي إذن ليس في تكنية فيما لا كناية فيه، وإنّما في إخفاقه فيما استعمله من أسلوب، فالمأخذ عليه جمالي وليس موضعيا كما هو عند الخفاجي**[10].

يمثّل هذا التعقيب إجحافا في حقّ ابن سنان لأنّه لم يذكر بأنّ الكناية تقتصر على إخفاء ما يُقبح ذكره فقط، وإنّما تحليله يعكس دقّة طرحه ووقوفه على أسرار الأساليب الكنائية في دلالاتها وسياقاتها الخاصة، فالشواهد الشعرية التي ذكرها ابن سنان الخفاجي في باب حسن وضع الألفاظ موضعها (من شروط الفصاحة والبلاغة) استخدم فيها مصطلح الكناية؛ لأنّ أصحابها تعمّدوا استعمال الأسلوب الكنائي للتعبير عما يُقبح ذكره ولا يحسُن فيه التصريح المباشر فيفقد الأسلوب فصاحته؛ فشروحه وتعقيباته على الشواهد التي ذكرها إنما هي شروح للباب الذي هو بصدد معالجته، وهو في هذا المقام (باب حسن وضع الألفاظ في مواضعها) لذلك فهو يعالج التكنية بصفتها عدولا عن لفظ إلى آخر في إطار محور الاختيار axe syntagmatique فهو لم يحصر الكناية في هذا الباب.

ومن شواهده القرآنية للكناية[11]:

منها الفصيح لقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ**﴾ (سورة الأنفال، الآية: 16)، وهي كناية عن الهزيمة بـ "التحيّز" اتباعًا، ومنها غير الفصيح لقوله عزوجلّ: ﴿**كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ**﴾ (سورة المائدة، الآية:75)، وهي كناية عن (الحدث).

علّق ابن سنان الخفاجي على هذه الآية الكريمة مبيّنا بأنّ ما جاء فيها ليس كناية عن (الحدث) بقوله: "**وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾ كناية عن الحَدَث، وليس الأمر على ما قال، بل معنى الكلام على ظاهره؛ لأنّه كما لا يجوز أن يكون المعبود محدثاً كذلك لا يجوز أن يكون طاعمًا، وهذا شيء ذكره أبو عثمان الجاحظ وهو صحيح**"[12].

وتجدر الإشارة إلى أنّ أغلب المفسّرين والأصوليين والبلاغيين اتّفقوا على أنّ في هذه الآية كناية عن صفة (الحدث)، والمقصود أنّ المسيح وأمّه عليهما السلام من البشر، وأنّهما يأكلان الطعام (سبب الحدث)، فهذا دليل بيّن على بُعدهما عن الألوهية لأنّ الأكل من لوازم قضاء الحاجة، فالكناية في الخطاب القرآني أداء للمعنى بصورة مهذّبة فيما يُستحى من ذكره، وهو ما يعكس جمال التعبير القرآني وروعة التصوير ودقة التأليف.

إذن: فالكناية في هذا الباب ذات دلالة لغوية لأنّها جاءت في المواضع التي يحسن وضع الألفاظ فيها لتحقيق صفة الفصاحة والبلاغة.

وعالج الكناية أيضا في باب من نعوت البلاغة والفصاحة، معرّفا إيّاها بقوله: " **ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تُراد الدلالة على المعنى، فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له في اللّغة، بل يُؤتى بلفظ يتبع ذلك المعنى ضرورة فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع، وهذا يسمّى "الإرداف"و "التتبيع" لأنّه يُؤتى فيه بلفظ هو ردف اللفظ المخصوص بذلك المعنى وتابعه، والأصل في حسن هذا أنّه يقع فيه من المبالغة في الوصف، ما لا يكون في نفس اللفظ المخصوص بذلك المعنى**"[13].

وعرّف **قدامة بن جعفر** الكناية بعدّها نوعا من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى فسمّاها "الإرداف"، يقول: "**الإرداف وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له، فإذا دلّ على التابع أبان عن المتبوع**"[14].

يبدو أنّ ابن سنان الخفاجي أخذ تعريف الإرداف[15] من قدامة بن جعفر[16] إلاّ أنّه كان أكثر تحليلا منه وتمثيلا ومعرفة بخباياها وأهدافها لأنّه قصد بالإرداف الكناية بالمفهوم البلاغي وهي التي: "**تنتقل بمتلقي الخطاب إلى دلالات أخرى مستلزمة، متجاوزة بذلك المعنى الحرفي للعبارة (دلالة وضعيّة) لتصل إلى المعنى المقصود (المكنّى عنه)، ويكون ذلك من خلال السّياق الاستعمالي للتّراكيب، إنّها عدول عن التّصريح بذكر الشّيء مباشرة (التعبير بالمكنّى عنه) إلى الإيماء إليه (التعبير بالمكنّى به)**"[17].

فهذا يعني: "**أنّنا أمام انحراف لغوي، تنحرف فيه الصياغة عن دلالتها الوضعيّة إلى دلالة أخرى مجازية تترتب عليها لوجود علاقة تلازم عرفي أو عقلي بينهما**"[18].

إذن: الكناية مظهر تداولي[19] لأنّها تتجاوز المعنى الحرفي المباشر للصياغة اللّغوية إلى المعنى المستلزم، فتفرض على المتلقي تفعيل قدراته الاستدلاليّة والاستنباطية بالاستناد على مقام الاستعمال للبحث عن المعنى المضمر من طريق المعنى الحرفي بعدّه (قرينة مساعدة) للوصول إلى المعنى المقصود لوجود علاقة تلازمية تربط بينهما.

فمن المعروف أنّ القرن الخامس الهجري مثّل بداية لمرحلة جديدة مهدّت لنضج الدرس البلاغي العربي، فلم يكن واضح المعالم ولم تحدد فيه العلوم البلاغية الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) - كما هي عليه الآن-، لأنّ التأسيس والتقعيد الفعلي جاء مع السكاكي[20] (ت 626هـ)؛ أي أنّ المصطلحات لم تستقل بعد بمعانيها الخاصة والدقيقة، لذلك ورد ترتيب الشواهد الكنائية عند ابن سنان الخفاجي وفق المنهج الذي رسمه وكان السبب في تأليفه لكتاب "سر الفصاحة " وهو البحث عن حقيقة الفصاحة ضمن شروط الفصاحة والبلاغة ونعوتهما، فنجده يقسّم الكناية إلى نوعين: حسنة وقبيحة مع التحليل و التعليل لأنّه لم يذكر صراحة التقسيمات التي حدّدها البلاغيون - فيما بعد- (كناية عن صفة وموصوف ونسبة[21])، إلاّ أنّ شواهده تدل على معرفته لها، لذلك سيكون تصنيفها (شواهد الكناية بالمفهوم البلاغي "الإرداف") حسب أقسام الكناية عند المتأخرين.

1- كناية عن صفة:

تحدث بإلصاق صفة من الصفات المعنوية بالموصوف، ومن شواهده الشعرية الفصيحة على ذلك:

قول **امرئ القيس**[22]:

وَيُضْحِي فَتِيتُ المِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا نَؤُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ[23] عَنْ تَفَضُّلِ[24]

علّق **الخفاجي** على هذا البيت بقوله:" **فإنّه لما أراد أن يصف ترفُّه هذه المرأة ونعمتها قال: نؤوم الضحى، يبقى فَتيتُ المسك فوق فراشها، لم تنتطق لتخدم نفسها، فعبّر بذلك عن غناها وترفهها وخفض عيشها، وأتى بألفاظ تدل على ذلك أبلغ مما يدّل عليه قوله، إنّها غنية مرفهة**"[25].

وعلّق أيضا **قدامة بن جعفر** على هذا البيت بقوله: "**وإنّما أراد امرؤ القيس أن يذكر ترفه هذه المرأة وأنّ لها من يكفيها فقال: "نؤوم الضحى" وأنّ فتيت المسك يبقى إلى الضحى فوق فراشها، وكذلك سائر البيت، أي هي لا تنتطق لتخدم ولكنّها في بيتها متفضلة**"[26].

وأما **العسكري** فقال:" **أراد أنّها مكفيّة؛ ونؤومة الضحى وترك الانتطاق للخدمة يردفان الكناية: فعبّر بهما عنها وأراد أنّها من أهل الترفّه والنعمة فتستعمل المسك الكثير فينتثر في فراشها، وهذه الحال تُردف الترف والنعمة**"[27].

ويمكن تمثيل الشاهد الشعري تداوليا على النحو الآتي[28]:

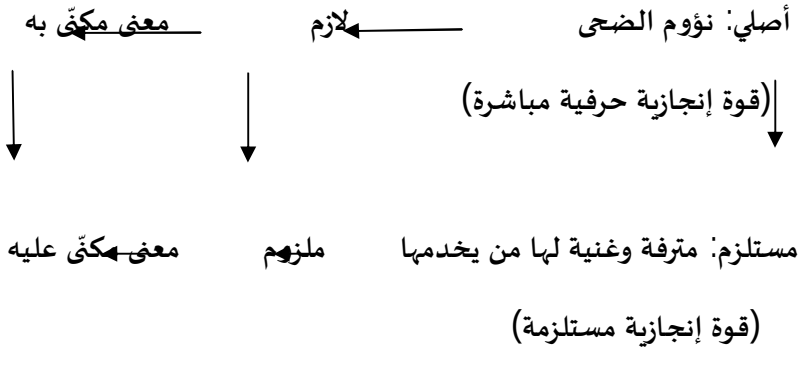

مما تقدّم يتّضح أنّ: "**نؤوم الضحى**" مؤداها الحرفي المباشر الأصلي لا ينسجم ومقام المدح أو الذم أو الجدّ أو الهزل "**نوم هذه المرأة إلى وقت الضحى**" فلا بّد للمتلقي من قرائن ومؤشرات يستدل عليها من القوة الإنجازية الحرفية المباشرة (مقاصد المتكلم غير المصرّح بها والسيّاق) للوصول إلى مدلول ثان أو(معنى المعنى) لوجود علاقة تلازم بين المعنيين، وهو أنّ المرأة مترفة وغنية لها من يخدمها عكس نساء العرب إذن: فالمتلقي استند على السياق الثقافي والاجتماعي العام المشترك بينه وبين المتكلم السائد في البيئة العربية للوصول إلى المعنى، والتي من عاداتهم أنّ نسائهم لا تنام وقت الضحى إلاّ من كان لها من يخدمها، وعليه يمكن القول أنّ: "**للثقافة بمفهومها الواسع دورا مهما في تحديد مقاصد الخطاب غير المباشر أيّا كان شكل هذا الخطاب (تشبيها أو استعاريا أو كنائيا)، ومن عناصر الثقافة تلك الأمور الاجتماعية مثل نظام الحياة اليوميّ، فعادات العرب على سبيل المثال في منطقة معيّنة تتطلب نظاما معيّنا، قد يخرج عنه بعض من لا يلتزم به، فيغدو ذلك مؤشرا على عدم انتمائه للمجتمع بصورته العامة، مما يؤثر على الخطاب، فتصبح الإشارة إلى هذه المخالفة من قرائن الخطاب الذي تصرفه عن معانيه الأصلية إلى غيرها، وهذا الدور أصبح حاضرا في خطابات**

النّاس، إذ يشيرون إلى قصدهم بتوظيفها، إدراكا منهم أنّ المتلقي سوف يفهم القصد دون عناء ذهني"[29].

فالمعرفة والخبرة الخاصة الموجودة على مستوى ذهن كل من المتكلم والمخاطَب تحوي داخلها صورا متعددة لتجارب وخبرات مكتسبة من الأمور الاجتماعية (أنظمة وعادات وتقاليد وقيم خاصة بمجتمع معيّن)، ما يفرض على المتكلم توظيف مقولات كنائية في سياقات معيّنة وبمكان وزمان محدّد يعتمد عليها المتلقي في فهم المقصود، حتى يجعل إنجازه ملائما للسياق؛ أي ربط الإنجاز اللّغوي بعناصر السياق الذي حدث فيه أو ما يصطلح عليه بسياق الثقافة، لأنّ المعنى يتعدد ويتغير بفعل عامل الزمن (المتكلم+ المتلقي+ سياق الثقافة = المعنى).

وتجدر الإشارة إلى أنّ الكناية لا يجوز التعامل معها على أنّها تعبير ذو دلالة متحجرة ثابتة عند نقطة معيّنة، وحصر الاستشهاد في نماذج معيّنة كما حُدّدت عند البلاغيين العرب القدماء على حد قول رجاء عيد: **" تظل الكناية - كما عرفنا نماذجها المتكررة لدى البلاغيين - خاضعة لعرف لغوي في بيئة محدّدة، ثمّ تتغير الأنماط الاجتماعية والأداء اللّغوي وتتحول جميع نماذجها إلى تعبيرات محنطة نضطر لكي ندرك دلالتها أن نحيي الموتى أو أن نغيب عن وعينا بنبض عصرنا ولغته ونتمثّل بيئة بها "نؤوم الضحى" وفي جميع الأحوال تظل تلك الدلالات اللّغوية محدودة القيمة الفنّية"**[30].

وكل هذا من شأنه خلق فجوة دلالية، لأنّها نماذج خاصة بمرحلة معيّنة لا تتلاءم مع المتغيرات النقدية والبلاغية والجمالية الجديدة **"وعلى ذلك فإنّه يكون من الخطر الوقوف باسترخاء عند كل بيت لنخوض في أحشائه لنقبض على دلالة جزئية تكون هي "الكناية" فالإيحاءات الرامزة تتداخل في العمل الفنّي جميعه وتتآزر هذه الجزئيات لينمو من خلالها حصاد فنّي جديد، ونستطيع ونحن منطلقون في رحلة القصيدة استكشاف كل المدائن المجهولة التي تنبثق أمامنا لحظة استبصار فنّي جاد"**[31].

ومن شواهده النثرية الفصيحة[32]: **"قول أعرابية وصفت رجلا فقالت: لقد كان فهم عمّار وما عمّار؟ طلاّب بأوتار، لم تخمد له قط نار".**

علّق ابن سنان الخفاجي بقوله: **"فأرادت بقولها: "لم تخمد له قط نار" كثرة إطعامه الطعام، فلم تأت بذلك اللفظ بعينه، بل بلفظ هو أبلغ في المقصود؛ لأنّ كثيرا ممن لا يُطعم الطعام تخمد ناره في وقت"**[33].

ويمكن تمثيل كيفية استدلال المتلقي على قصد المتكلم من منظور تداولي على النحو الآتي[34]:

1- إنّ المتكلم قد أنجز فعلا من خلال قوله: **(لم تخمد له قط نار)**.

2- إنّ المتكلم يحترم الشروط الإنجازية ويُراعيها، ومنها ما يتعلق بالمبادئ الحوارية التي تقتضي وصول المعنى بالصورة الصحيحة والمنطقية.

3- إنّ المتكلم بقوله: **(لم تخمد له قط نار)** يكون قد خرق القواعد المتفرعة عن الشروط الإنجازية - ولاسيما مبدأ التعاون الحواري- التي تقتضي اجتناب المتكلم لخفاء العبارة بأن لا يكون كلامه متشابها ولا مجملا ولا مشكلا إذن إنّ قول المتكلم: **(لم تخمد له قط نار)** غير واضح ولا يخلو من إخفاء لوجه التصريح، إلاّ أنّ إخفاء وجه التصريح يكون ممكنا إذا كان المتكلم يقصد معنى آخر لم يُصرّح به حرفيّا، وهذا المعنى متعلق بمعنى المصرّح به، وبذلك لا يكون المتكلم قد خرق تلك الشروط الإنجازية.

4- إنّ المتكلم يقصد معنى آخر غير المصرّح به حرفيا؛ لأنّه يحترم شروط الإنجاز.

5- يبحث المتلقي- استنادا إلى السياق وإلى قدرته الاستدلالية - عن المعاني الممكنة غير المصرّح بها لـ **(لم تخمد له قط نار)** فيحصرها في **(الإنسان الكريم والمضياف وكثير الطبخ وكثير إحراق الحطب وكثير الرماد)**، حيث يوجد ارتباط لزومي للمعنى بين الطرفين.

6- يقتنع المتلقي بقصد المتكلم ويقبله.

2- كناية عن موصوف:

وهي التي يُعدل فيها عن ذكر الموصوف إلى ذكر صفة أو صفات متعددة من صفاته، تُمكّن السامع من فهم مقاصد المتكلم، وتنقسم الكناية عن موصوف إلى: كناية عن موصوف (بمعنى واحد) وكناية عن موصوف (بمعان متعدّدة)، وتجدر الإشارة إلى أنّ الشاهدين الشعريين الوحيدين الفصيحين اللّذين ذكرهما ابن سنان الخفاجي من النوع الأول.

يقول البحتري[35]:

فَأَوْجَرْتُهُ أُخْرَى فَأَضْلَلْتُ نَصْلَهَا بِحَيْثُ يَكُونُ اللُّبُ وَالرُّعْبُ والحِقْدُ

ويقول شاعر آخر[36]:

الضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مِخْذَمٍ[37] وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الأَضْغَانِ[38]

علّق الخفاجي على البيت الأول بقوله: **" لأنّه أراد "القلب"، فلم يُعبّر عنه باسمه الموضوع له، وعدل إلى الكناية عنه وبما يكون اللّب والرعب والحقد فيه، وكان ذلك أحسن؛ لأنّه إذا ذكره بهذه الكناية كان قد دلّ على شرفه وتميّزه عن جميع الجسد بكون هذه الأشياء فيه، وأنّه أصاب هذا المرمى في أشرف موضع منه، ولو قال: أصبتُه في قلبه لم يكن في ذلك دلالة على أنّ القلب أشرف أعضاء الجسد، فعلى هذا السبيل يُستحسن الإرداف"**[39].

فالملاحظ أنّ في هذا الشاهد الشعري ثلاث كنايات عن موصوف واحد منفصلة ساهمت في تكثيف الدلالة بين المعنى الأصلي والمعنى المستلزم، ما دفع المتلقي إلى إعمال ذهنه للبحث عن معنى ثان لعدم فائدة المعنى الأول للوصول إلى المعنى المقصود، مع مراعاة السّياق الخاص لاستنباط المعنى الثاني من الصفات المتعددة للموصوف.

إذن: فالكناية في هذين الشاهدين الشعريين عدول عن التصريح باسم الشيء (القلب) إلى التلميح ببعض صفاته (اللّب والرعب والحقد + مجامع الأضغان)، ومن هنا يبدأ المتلقي في التأويل بحثا عما يخفيه هذا التعبير من دلالات وإيحاءات معتمدا على آليات عقلية استدلالية معيّنة يقودها السياق (سياق الخوف والرعب و الحرب والمعركة والقتال والسيف والرمح والقوس والنبل والهجوم) فيحصرها في (القلب "أشرف أعضاء الجسد") للربط بين المعنى الظاهر الغير مقصود (اللازم) بالمعنى الخفي المقصود (الملزوم).

لقد خلصنا بعد هذا البحث إلى أنّ ابن سنان الخفاجي قد عالج موضوعات الكناية بتقسيماتها المتأخرة رغم أنه لم يعاصر مرحلة التقنين التي جاءت مع السكاكي.

لم تنحصر الكناية عنده وظيفيا في القيمة الفنية المرتبطة بالبعد التعبيري، بل تجاوزتها إلى:

1- القيمة الدلالية متمثلة في الانتقال من الدلالة الحرفية (السطحية) إلى الدلالة الإيحائية (العميقة).

2- والقيمة التداولية متمثلة في إقناع المتلقي بقصد المتكلم والتأثير فيه بما يتناسب ومقام الاستعمال، فيحصل الفهم والتأويل وتتحقق الفائدة فتقع المبالغة في الوصف والزيادة في المعنى.

الهوامش:

[1] ابن سنان الخفاجي (أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد)، سر الفصاحة، حققه وعلّق عليه وصنع فهارسه: النبوي عبد الواحد شعلان، دار قباء، القاهرة، (د ط)، 2003م، ص: 241.

[2] أشار ابن الأثير في كتابه: "المثل السائر" إلى أنّ علماء البيان قد خلطوا الكناية بالتعريض، ولم يفرّقوا بينهما، ولا حدّوا كلا منهما بحد يفصله عن صاحبه، بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر، وأدخلوا أحدهما في الآخر، فذكروا للكناية أمثلة من التعريض، والتعريض أمثلة من الكناية فمن فعل ذلك ابن سنان الخفاجي والعسكري...، (ابن الأثير (ضياء الدين)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدّمه وعلّق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، (د ط)، (د ت)، 49/3).

[3] المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[4] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[5] المصدر نفسه، ص: 244.

[6] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[7] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[8] سراويلات: ج: سراويل: فارسي معرّب، وهو لباس يغطّي السّرة والركبتين وما بينهما، (ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم الافريقي المصري)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د ط)، (د ت)، 334/11، مادة: (سرل))، (ومجمع اللّغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدوليّة، جمهورية مصر العربيّة، ط4، 2004م، ص: 428، مادة: (سرل)).

[9] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص: 245.

[10] ينظر، محمّد الحسن علي الأمين أحمد، الكناية وأساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير، الدراسات العليا العربيّة، فرع الأدب، كلية اللّغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1983-1984م، ص: 24.

[11] المصدر السابق، ص: 243 و 245.

[12] المصدر نفسه، ص: 245.

[13] المصدر نفسه، ص: 342.

[14] قدامة بن جعفر (أبو الفرج)، نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت)، ص: 157.

[15] ومن يسأل: ما هو سبب فصله بين مصطلح الكناية والإرداف؟ يجيب عنه أحد الباحثين منطلقا من النصوص التي وُظفت فيها الكناية بقوله: ...**فالنصوص التي درسها الخفاجي في موضوع الكناية هي التي أكنّ**

فيها أصحابها عن معان يُقبح ذكرها... ولا يحسن التصريح بها فالمعنى الكنائي إذن: لغوي عند الخفاجي... ولهذا جاءت دراسته لها في كتابه مع المواضع التي يجب فيها وضع الألفاظ موضعها، فالمواضع التي لا يحسن فيها التصريح يجب فيها الكناية... وأما الأساليب التي درسها تحت موضوع الإرداف فهي جميعا من النعوت والصفات (كالكسل، والكرم...) ولهذا دُرست مع المواضيع التي عدّها من نعوت البلاغة والفصاحة فالإرداف إذن: كناية بالمفهوم البلاغي وتعليل الخفاجي لدراسته أنّه يقع فيه من المبالغة في الوصف مالا يكون في اللّفظ الصريح، (ينظر، محمّد الحسن علي الأمين أحمد، الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، ص ص: 27- 28).

[16] قدامة بن جعفر(ت337هـ) أوّل من وظّف مصطلح " الإرداف" للدلالة على المفهوم الاصطلاحي البلاغي للكناية (لم يفصل بين المفهوم اللّغوي والاصطلاحي)، والعسكري (ت395هـ) استعمل مصطلح " الإرداف والتوابع"، و" المماثلة" و" الكناية والتعريض" إلاّ أنّه وقع في الخلط بين مفاهيم هذه المصطلحات بسبب تفريقه بين مفهومها اللّغوي والاصطلاحي، وأما ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) استعمل مصطلح الكناية بالمعنى اللّغوي " في باب من شروط الفصاحة والبلاغة (حسن وضع الألفاظ موضعها)، ومصطلح "الإرداف والتتبيع" بالمعنى الاصطلاحي البلاغي " في باب من نعوت البلاغة والفصاحة" ما أدخل الكناية في مرحلة جديدة أكثر عمقا وتحليلا مما كان الحال عليه عند سابقيه، أفاد منها الجرجاني ومن جاء بعده.

[17] لهويمل باديس، مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كلية الآداب واللّغات، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، 2011- 2012م، ص ص: 243- 244.

[18] محمّد صلاح زكي أبو حميدة، البلاغة والأسلوبية عند السكاكي، جامعة الأزهر، غزّة، (د ط)، 2012م، ص: 308.

[19] التداولية: هي الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللّسانيات، ويهتم أكثر باستعمال اللّغة في التواصل، (فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، سورية، ط1، 2007م، ص:17).

[20] السكاكي أوّل من قام بتحديد مباحث البلاغة وضبط مصطلحاتها جاعلا إيّاها قسمين: علم المعاني وعلم البيان، وأما الذي جعلها قسما ثالثا من أقسام البلاغة وسمّاها علم البديع فهو بدر الدّين بن مالك في كتابه: "المصباح المنير"، (باديس لهويمل، مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي، ص: 84).

[21] لم يذكر ابن سنان الخفاجي شواهد تدل على كناية النسبة.

[22] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص: 343.

[23] لم تنتطق: ومنه النّطاق: وهو أن تلبس المرأة ثوبها، ثمّ تشد وسطها بشيء وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال، لئلا تعثر في ذيلها، أي أنّ هذه المرأة لم تشد نطاقا بعد تفضّل، (ابن منظور، لسان العرب، 355/10، مادة: (نطق))، والمصدر السابق، هامش الصفحة نفسها).

[24] تفضّل: يقال تفضّلت المرأة إذا لبست ثياب مهنتها أو كانت في ثوب واحد فهي فُضل، أي ليست بخادم فتتفضل، وتنتطق للخدمة، (المصدر السابق، 526/1، مادة: (فضل))، وينظر، المصدر السابق، هامش الصفحة نفسها).

[25] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[26] قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص: 158.

[27] العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1952م، ص: 352.

[28] أخذت فكرة المخطط من لهويمل باديس، مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي، ص: 244.

[29] علي محمود حجي الصّراف، - في البراجماتية- الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة- دراسة دلالية ومعجم سياقي - ونشير إليه: بالأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، (د ط)، 2010م، ص: 153.

[30] ينظر، رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط2، (د ت)، ص ص: 422- 423.

[31] المصدر نفسه، ص: 441.

[32] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص: 344.

[33] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[34] ينظر، علي محمود حجي الصّراف، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص ص: 152-153.

[35] المصدر السابق، ص: 345.

[36] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[37] مخذم: السيف القاطع، (ابن منظور، لسان العرب، 169/12، مادة: (خذم)).

[38] الأضغان: ج: ضغن: الحقد، (المصدر نفسه، 255/13، مادة: (ضغن)).

[39] المصدر السابق، الصفحة نفسها.

قائمة المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم (رواية حفص عن عاصم).

1- ابن الأثير (ضياء الدين)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، قدّمه وعلّق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، الجزء الثالث، (د ط)، (د ت).
2- الخفاجي (أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان)، سر الفصاحة، حقّقه وعلّق عليه وصنع فهارسه: النّبوي عبد الواحد شعلان، دار قباء، القاهرة، (د ط)،2003م.
3- رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط2، (د ت).
4- العسكري (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل)، كتاب الصناعتين، (الكتابة والشعر)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبوالفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1952م.
5- علي محمود حجي الصرّاف، - في البراجماتية- الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة - دراسة دلالية ومعجم سياقي-، مكتبة الآداب، القاهرة، (د ط)، 2010م.
6- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، سورية، ط1، 2007م.
7- قدامة بن جعفر (أبو الفرج)، نقد الشعر، تحقيق وتعليق: محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت).
8- مجمع اللّغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدوليّة، جمهورية مصر العربيّة، ط4، 2004م.
9- محمّد صلاح زكي أبو حميدة، البلاغة والأسلوبية عند السكاكي، جامعة الأزهر، غزّة، (د ط)، 2012م.
10- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم الافريقي المصري)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الجزء الأول، والجزء العاشر، والجزء الحادي عشر، والجزء الثاني عشر، والجزء الثالث عشر، (د ط)، (د ت).

قائمة الرسائل:

1- لهويمل باديس، مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كلية الآداب واللّغات، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، 2011-2012م.
2- محمّد الحسن علي الأمين أحمد، الكناية وأساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي، مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير، الدراسات العليا العربيّة، فرع الأدب، كلية اللّغة العربية، جامعة أم القرى، مكّة المكرمة، 1983-1984م.